الفصل

٢

معاذير تجنب المنغصات ومعاذير المجاملة

١- اللقاء بعد وقت طويل:

في حالة لحظات المفاجأة المزعجة المربكة، والمفاجئة وهي حالة اللقاء بعد وقت طويل سوف تنأى بنفسك قدر الإمكان عن أن تقول: «ماذا، أأنتِ جيزيلا؟ يا عزيزتي ما كنت لأعرفك من جديد أبداً! أتراكِ تغيرتِ!» وهذا البيان سيّء جداً لأن جيزيلا سوف تفترض أن هذا يعد حكماً سلبياً مدمراً عليها.

وقد دَأَبَتْ زميلة لاذعة اللسان حقاً على الرّد على مبادرتي بزيارتها بعد غياب طويل، على الدوام، بالتحية بقولها: «لقد أصبحت أكثر امتلاء فيما أرى غير أن هذا يلائمك!» وهذا على الرغم من صراعي المتواصل مع الميزان! وكان هذا يغيظني في كل مرة. فلتختر لنفسك ذريعة إيجابية حين لا يكون لك بُدٌّ أن تفصح عما في نفسك «هذا الثواب يصنع قواماً رائعاً، يا سلام! لقد أصبحتِ هيفاء القامة بدرجة أكبر أيضاً» أو: «هل تعلمين لماذا أصبحت فجأة أفتقد اليقين إلى هذا الحد حين رأيتك من جديد؟ لقد كنت أحتفظ بك في ذاكرتي شقراء تماماً غير أنك لست بالشقراء أبداً أتُراك ماعدتِ شقراء؟» وبمثل هذه اللفتة الالتفافية تتجنبين الحقيقة الخطيرة وهي أن رفيقة فصلك الدراسي المماثلة في السن تغيرت تغيراً ليس في

صالحها والرجاء أن لا تقولي: «يا عزيزتي أترانا أصبحنا عجوزين! أجل لقد عَدَت علينا صروف الزمان» أما الصديقة فلا تسمع إلا أنك قلتِ: «لقد أصبحتِ عجوزاً وعَدَت عليكِ صروف الزمان».

أو: كم مضى من السنين منذ أن حصلنا على الثانوية؟ أربعون عاماً، كلا بل اثنان وأربعون عاماً وكنت بعد هذا أصغر منك بعام«وعندما يلتفت المرء إلى الفروق في هذه الأثناء يمكن أن يكون ذلك خطيراً، فهل تعلمين أكانت زميلة الفصل الدراسي لم تُصَغِّر نفسها إلى حدٍّ ما، أم تراها كانت لا تتكلَّم عن سنها قدر الإمكان؟ وإنما يكون ذلك في كثير من الأحيان لأسباب مهنية، وما أكثر النساء والرجال الذين شدوا بشرتهم في هذه الأيام وصلَّبوا عودهم بالتمارين الرياضية ـ وباتوا ينضحون باللياقة البدنية.

وقد دَأَبت الفنانات فيما مضى على خفض سنوات أعمارهن بالخداع ـ وهنَّ جدٌّ بارعاتٍ في هذا، بالمناسبة، أو باللف والدوران حول مسألة السن، على أن اللامبالاة الحالية، المتمثلة في كتابة عدد سنوات العمر دائماً وراء الاسم تعد مضحكة وفائضة عن الحاجة إلى أقصى الحدود، وفي حالة نجوم السينما المشهورين كل الشهرة والذين يكونون قد فعلوا الكثير جداً من أجل مظهرهم، يكون من قبيل الإصرار الباعث لسوء الظن والشك في حالة بلوغهم الستين فما فوقها، أن يقال عن النجم أو النجمة: «ألا ما أروع المظهر الذي يظهر به هذا حتى اليوم!».

وثمة فنانات أخريات معروفات أيضاً ـ يظهرن بهذا المظهر أيضاً، منذ الخامسة والخمسين وما زاد عليها، للملأ، ويُكرَّمن، في كثير من الأحيان إلاّ في عيد ميلادهن السبعين أو الثمانين.

وعثرت على جواب سمعته، وكان مضحكاً حقاً وجيداً. وذلك أن سيدة سئلت كم تبلغ من العمر فابتسمت وقالت: «تستطيعين أن تبدئي من الستين ثم تواصلي بعد ذلك الصعود أو الهبوط كما يروق لكِ. فماذا أنت قائلة جواباً عن ذلك؟! انتبهي، فالمرء لا يقفل باب الحديث بهذه السرعة! والذي يسأل بهذا الأسلوب المباشر لابد أن يفكر لحظة في ذهنه قائلاً: «أجل.... وماذا الآن؟ إنها إذا واصلت العدَّ صعوداً فذلك يعني أنها لم تتجاوز الستين بعد .... وإذا واصلت العدَّ في الاتجاه السفلي.... فذلك يعني أن هناك مزيداً من عامين أو ثلاثة؟ «وفي هذه الفترة القصيرة من التوقف عن التفكير تنطلقين بسرعة واسترخاء بسؤال يحوِّل الانتباه نحو موضوع آخر ومن المؤكد أن السائل الفضولي لن يلاحقك على الفور! وبالطبع فأنت تستطيعين أن تقولي: هذا أمر لا يعنيك أبداً!» غير أن هذا ليس بالمستحسن كثيراً. أما قولك: المرء يكون سنُّه تبعاً لشعوره فهذا قول مستهلك ولذلك لا يوصى به كذلك بأن تقولي «إذاً فاحذري!» أو: «ما هو تقديرك لسني إذاً؟» فلنبتعد عن الحقائق والأرقام! أما الأكاذيب فلا تريدينها أبداً بلا ريب! وأفضل ما يلائم المقام هنا إثارة عدم اليقين عند الشركاء فالرجال ذوو السن الأكثر نضجاً يستطيعون وهم يبتسمون أن يردوا بهجوم مضادّ قائلين: «عشرون عاماً ولما أنجز بعد شيئاً من أجل الخلود! وهذه لحظة بالغة القِصَر غير أني أدليت بإسهامي في هذه الأثناء!» ثم يبادر بنفسه على الفور إلى التطرق إلى موضوع آخر! (وهذه الكلمة ينطق بها دون كارلوس عند شيلر).

أو تقولين، إذا كنت امرأة: «أما السنوات السبع عشرة فأخلفها للأخريات. وأما السنوات الإحدى والسبعون فما زال أمامي كثير من الوقت قبل أن أبلغها!» وهناك أيضاً: «تبادرين على الفور إلى الخوض في موضوع جديد فأعدِّي لنفسك بضعة من أمثال هذه المعاذير، معاذير تجنب المنغصات ومعاذير المجاملة قبل اللقاء بين الطبقات الاجتماعية والاحتفالات التذكارية في الاتحادات وفي أعياد الميلاد الشخصية ذات الأرقام المدورة وفي المواعيد التي لا يرى فيها المرء نفسه إلا نادراً وفي هذه المناسبات كثيراً ما تطرح أسئلة مماثلة أو ملاحظات مشابهة.

٢- أسعفيني. فقد نسيت اسمك!

وثمة شَرَك آخر:

ففي كثير من الأحيان يكون المرء قد نسي الاسم فكيف يتجاوز المرء أمثال هذه المواقف؟ إنها مواقف جد مألوفة ولكن لا يوصي بها بصورة مطلقة: «يا لخيبة ذاكرتي الآن ما عدت أعرف اسمك حقاً، أجل، أجل هكذا تبدأ المسالة: ألتّسهايّمر يهدي إليك تحياته» على أن ما هو أسلس من ذلك وأقل حرجاً، ابتسامة تنم عن الألفة والمودة وإيماءة بالرأس ومصافحة وجمل تحوِّل الانتباه: «كل سنة نلتقي من جديد في مناسبة احتفالية وأنا أسر دائماً بهذا فهناك الكثير من الوجوه الجديدة والكثير من الوجوه المألوفة وسوف يرى كلٌّ منَّا الآخر أيضاً إلى وقت لاحق» وعلى الأغلب تكونين موفقة عند المبادرة بالتحية الودية من دون ذكر للاسم. أما الغريب فيغمغم باسمه وبذلك تعرفين على الأقل أنك لا تعرفينه وتستطيعين أيضاً أن تغمغمي باسمك.

Obeikandi.com

ثمة قدر من الناس يمرون بهذا مرور الكرام. على أن مما يستحقون الشكر عليه أنهم يدعون مستنداً صغيراً في ذاكرتهم يذكرهم باسمك ويتعلقون به. وكانت واحدةٌ من معارفي تقول دائماً:

«فولاذ ـ كالحديد.» وذات مرة قدم رجل نفسه قائلاً: «بونتيوس، مثل بونتيوس بيلاطس وكان ينفذ في هذه الأثناء بيديه اللفتة الشهيرة قائلاً: أنا أغسل يدي ببراءة وكان شيئاً مزعجاً بالطبع أنني خاطبته في المرة التالية بقولي: «يا سيد بيلاطس ـ غير أنه أخذ هذا على محمل الهزل وكان ذلك قد حدث من قبلُ مراراً».

وكان رجل من رجال الأعمال يدعى فريتس توفل (*)يحيّي زبائنه على الهاتف دائماً بجملة «سلام من الله، هنا يتحدث توفِل» وكان الناس يتذكرون هذا جيداً.

على أن تقليد التقديم الشخصي المتبادل الصحيح لا يكون على الأغلب ضرورياً إلا في اللقاءات الرسمية فإذا لم يكن من الممكن تجنب ذلك أو الالتفاف عليه ولم يكن لديك تقدير لمن عسى أن يكون هذا فلا بد لك أن تعرف ذلك وعندئذ يسعفك، في إطار أكبر، قولك: «فلتتعارفا رجاء بصورة متبادلة وانتظرا عودتي هناك ـ وأرجو المعذرة!» ولا يكون هناك إلا الهرب. وإذا انتهت المسألة في احتفالات أكبر إلى مائدة مع أصدقاء أو معارف لا يعرف المرء أسماءهم أو وجوههم إلا بصورة عابرة وقد نسيها نسياناً مطلقاً فقد تحصلت لديَّ خبرة جيدة في التحية، إذ

(*) توفِل بالألمانية، تعني الشيطان «المترجم»

تقول: «هل تأذنون لي أن أقدم نفسي للسادة جميعاً لأولئك الذين يعرفونني، كي أبتعث اسمي في ذاكرتهم، أما اسمي... «فلا تهتموا لذلك! ويكون كثير منهم قد تخلص، إذ أنه ما عاد يعرف أيضاً في أي محل سيُحلُّك من ذاكرته. ومن المستحسن أيضاً أن يومئ كلٌّ برأسه موافقاً تبعاً لتسلسله في الدور ويصافح الجميع قائلاً: «أنا هنا للمرة الثانية في هذا اللقاء ويسرني أن آتي دائماً، فالمرء يرى وجوهاً مألوفة ووجوهاً جديدة وتكون هناك مفاجآت دائماً» فإذا قلت هذا بمودة ومرح لم يلاحظ أحد ذريعتك وأنك لا تدري إلى من تقدم تحيتك وقد يستطيع المرء أن يطلق على هذه الأشكال اليسيرة من التجنب في المواقف الخاصة بالأحاديث العامة، وغير الملزمة اسم معاذير الحرج والمجاملة. وإذ تناولنا المسألة بدقة لم تكن هذه الحركات الالتفافية اليسيرة معاذير حقيقية غير أنها تتيح احتمالات غير محدودة من الإمكانيات نكتسبها على مدى حياتنا لنلتف حول شئ ما يكون على الأغلب غير مستحب بالقياس إلينا والى الآخرين غير آن المرء لا يتعلم ذلك إلا حين يكبر، أما الأطفال فما زالوا لا يستطيعون هذا.

٣ - الحقائق الذهبية المأخوذة من أفواه الأطفال:

وفي أغلب الأحيان لا يعرف الأطفال إلا الحقيقة أو الكذب الصريح: «أيْ جَدِّي، لقد أصبحت سميناً»

«أنا لا أجلس إلى جانب العمة لينا فإنها تصدر دائماً مثل هذه الرائحة الكريهة فالأطفال هنا ليس لديهم أية روادع أو معوِّقات، أما الكبار فيعد هذا عندهم مزعجاً أو محرجاً إلى أقصى الحدود. وفي

اجتماع عائلي من أجل عيد ميلادي تحدثت وأنا حديثة عهد بالزواج عن أول طبخة ناجحة لي من طبخات إوزة القدر الروماني فارتفع صوت ابنة أختي ذات سبعة الأعوام فوق همهمات الاستحسان العام بالزعيق الذي تخالطه البهجة قائلة «هذا غير صحيح أبداً فأنت لا تستطيعين الطبخ ولا يوجد عندكم دائما إلاّ شو ربات الماجي وخضار المعلبات ولم تَجُنِ مارتينا المجتهدة في تسجيل الحقيقة سوى ضحكة مجلجلة وكلاماً من قبيل: «ولكن أيتها ... كيف تستطيعين أن تقولي هذا فحسب وعلى هذا فأنا لا أعرف على الإطلاق، وربما قلنا ذات مرة» والآن انتهى هذا التصرف الطفولي الخاطئ إلى الضحك أما أنا فلم أنطوِ قط على طموح يدفعني إلى أن أغدو من أهل المماحكة. وهناك احتياطي لا يكاد ينضب معينه من الحقائق المأخوذة من أفواه الأطفال يستقر لدى رواة النكات أو القراء أو رؤساء الجلسات ويجدهم المرء في الصور الكاريكاتورية، في المجلات والجرائد وهم يتنكَّرون إلى حد ما على مر السنين غير أن المرء يميزهم في الأساس، المرة بعد الأخرى وما يصدره فريتس الصغير من أمور طريفة من نفسه يرويه على الفور أليكس الصغير أو بوريس وهو يتيح لأفراد الأسرة من قبلُ ومن بعد متعة دسمة مستعذبة عندما يصدر عن الصغير شيء ما بصوت عالٍ شيء يتصوره الحاضرون جميعاً أيضاً في قرارة أنفسهم والناس يضحكون بصوت عال، على الخصوص، قائلين: «كلا أهكذا تتحدث: يالَهذا الطفل! أتراك لا تخجل وتظل تروي المرة بعد الأخرى في محيط المعارف أو في العائلة هذه الحكاية التي تبنى على سؤال «ما قولك في هذا» لأنها مضحكة

إلى حدٍ بعيد غير أنها تكون في كثير جداً من الأحيان بمثابة الذريعة اللاشعورية لتكرار الكلمات الذهبية» التي تخرج من أفواه الأطفال الآن وبصوتٍ عالٍ أيضاً وبسرور من يسرق شيئاً. ومن الممكن أن يكون خطر ببال والدَيّ ابنة أختي ذات سبعة الأعوام وذوي قرابتها من وراء الضحك المحرج والاعتذارات في قرارة أنفسهم فكرة مؤداها: «بلى إن هذه الطفلة قد تكون على صواب فمن الممكن أن تكون هذه لا تحسن الطبخ بالفعل ولا تعرف كيف تشوي وتخبز وأنَّى لها أن تستطيع ذلك أيضاً بهذا القدور الثلاثة التي لا تملك سواها!» وثمة نكتة محبوبة متداولة كان يسرُّ القوم أن يرووها لدى معارفنا وقد سمعتها خمس مرات على الأقل. «فلتتصور أن ديتر كان عليه أن يتلو قصيدةً في عيد ميلاد الجد الستين وكان هذا يأبى! وكنا قد دربناهُ على ذلك تدريباً هو في غاية الإتقان وكان الجد ينتظر ذلك بلا ريب. وحين أبى ديتر وعاند همست أمه في أذنه قائلة: «فلتنشد ببساطة قصيدةً تعلمتها لتوَّك في روضة الأطفال هيا!: فما الذي حدث؟ هنالك تقدم ديتر وجعل يصرخ بأعلى صوته: أيها الخنزير السمين إن أمرك ليؤسفني فما عاد في عمرك إلا أجل قصير «فيا لهذا الكلام! كلا!» وطفق الرواة يضحكون ضحكاً مكتوماً يختلط بالشهيق والزفير بعد ذلك من فرط السرور وكان الجد بالمناسبة سميناً بخيلاً وطاغياً جباراً في العائلة. وعلى هذا فلا عجب في أن التهاني الجريئة الصادرة عن الصغير ديتر أيقظت في النفوس سروراً خفياً بالأذى إلى جانب الذريعة غير المعترف بها في زاوية من زوايا الضمير: «أنا لم أقل ذلك - ولكن في الحقيقة كلاّ كلاّ فبالنظر إلى حالة الجد كان الواحد منا

خليقاً على وجه التقريب...» ومن عساه يصف ذهولي حين سمعت بعد سنين في أمسية حافلة فيها جمهور غفير من عريف الحفل النكتة ذاتها التي قوبلت بالضحك الصاخب المجلجل وتصفيق الاستحسان!

وما يقوله الآخرون أو يرسمونه أيضاً ويخرجونه في رسم كاريكاتوري يحدث عندنا شعوراً مترعاً بالمتعة ونجدهُ لذيذاً ومضحكاً بطريقة جنونية. وهذا أمر جائز لنا أيضاً ونحن نقول بكل سرور: «ولكن هذا ما قاله هذا عن ذاك. وذلك ما يحدث له بحق!» أما حين لا يستطيع العم فريتس أن يدافع عن نفسه في حالة ماكس وموريتس في وجه صرصور أيار أو أنَّ الأرملة المسكينة بولّته تنشب المخالب في دجاجها المشوي فليس هناك رثاء لحال المصابين! على أن جملة الاعتذار الرائعة «لم أكن أنا الفاعل - بل يقع الذنب على الآخرين ولكن بورك من يعتقد بنفسه لمقدرة على ذلك» أما أنا فما كنت لأفعل ذلك أبداً وما من ضمير فاسد يسمح بأن يَقَرَّ المرء عيناً بمثل هذا المكر والخبث. وإنما هو مجرد تصوير، وليس إلاّ قصة تروى...

وهناك تتوافر في كثير من الأحيان بوادر المعاذير للآخرين ولنا نحن إلى أن نصدقها آخر الأمر بالفعل وتكون منسية منذ عهد بعيد من قِبَلنا نحن الكبار، ولكن هذه هي المرحلة العليا من مراحل المعاذير فنحن نظل أول الأمر في إطار وقائع حياتنا اليومية الراسخة والملموسة.

٤- معاذير التأخر

ومع بداية فترة المدرسة يطوِّر الأطفال المقدرة على اختراع المعاذير التي تتواصل بصورة منتظمة وذلك أمر لابد للطفل منه كيلا تنهال عليه ألوان التوبيخ والعقوبات على نحو دائم. وأكثر هذه المعاذير قاطبة،

شيوعاً، وتداولاً، معذرة مألوفة لديكم جميعاً: إذ يأتي الطفل إلى المدرسة متأخراً أو يعود إلى البيت متأخراً. «لم تأتِ الحافلة. ببساطة» «تعطل أحد خطوط المواصلات» كانت الساعة لا تجاوز الثانية عشرة غير أنها كانت خاطئة ولم ألاحظ ذلك على الإطلاق» «اليوم استغرقت الحصة الدراسية وقتاً أطول ولم يكن لي مفرٌ من أن أصطحب ماكس الذي كانت حالته سيئة للغاية».

«أيقظتني أمي في وقت متأخر» وأنت تلاحظ: في سن المدرسة أصبح الأطفال أبرع كثيراً وقد كنت بالمناسبة من المتأخرات المثابرات على التأخر ففي الصباح كان يفتقد دائماً شيء من أدوات المطبخ والكتب والكراريس قبل أن أنطلق كالريح من البيت. وكنت أنعطف يُمنة أو يُسرة وراء المعلمة وأنا أدخل الفصل الدراسي وكانت المعلمات المرحات يرسلنني بهمة ونشاط إلى مكاني في الفصل. أما المعلمات اللواتي تولّتهن السآمة فكنَّ يهدِّدنني بتسجيل اسمي في دفتر التفقد وكان ثمة أخريات يلذعنني بقارص السخرية: «ماذا لديك اليوم من المعاذير؟» وقد جمعت مع الزمن جملة من الحيل اليسيرة فكنت أعرج حيناً وقد ارتسمت على وجهي علامات الألم، إلى مكاني قائلة: «أواه لقد زَلَّت قدمي» أو كنت أشكو من ألم في الأسنان وأنا أعضٌ على شفتي! أو يكون عليَّ أن أساعد أخي الأصغر في البحث عن كراسة الإملاء وكان ذلك يشكل مشهداً مسرحياً في كل مرة، مشهداً كان الفصل ينتظره باستمتاع وسرور بالأذى. أما في البيولوجيا فكنت أقل توفيقاً. فقبل أن أتمكن من أداء القسم تذرّعت بأنني مضطرة إلى

العودة إلى البيت لأنني كنت أعتقد أنني نسيت مفتاحي الذي عثرت عليه بعد ذلك في جيبي الجانبي، عنَّفني المعلم الحانق بقوله: «لا أريد أقاصيص ملفقة أيتها الآنسة منشهاوزن هلمي إلى السبورة واشرحي لنا نظام الأسْدِية في النباتات ذات الأزهار الشفوية». ومعاذير التأخر تصحبنا وحتى بعد الإحالة إلى التقاعد.

٥- معاذير المرض

وتعتبر معاذير المرض المألوفة منذ أيام المدرسة وسنوات المهنة من المعاذير التي تدوم أيضاً. ولعل من الأمور الباعثة للدهشة أنها تظهر على الأغلب في الصباح الباكر «آه لديَّ آلام رهيبة في البطن لقد تسممت بلا ريب».

أنا لا أستطيع أن أبتلع شيئاً على الإطلاق. رقبتي - كيف ينبغي لي أن أقرأ موضوعي!» «أنا أشعر بحرارة شديدة وأعاني من حمى مرتفعة وعندما أشارك في عَدْوِ سباق الحواجز ينخلع مفصل ساقي فوق هذا».

وبالطبع تتأمل الأم هذا الاختلاق والتلفيق. كلاّ، لقد سبق لها أن عانت على الدوام أيضاً من خوف شديد من دراسة اللاتينية والإملاء.... وهكذا يتظاهر المرء بأنه صدَّق الذريعة في هذا الوقت على الأقل وليس دائماً بالطبع. ولكن لو أن الطفل المسكين...

وتلجأ الأمهات إلى الحيلة ذاتها تبعاً لدرجة تعاطفها، بالوسيلة الخطية أو بالهاتف.

«لقد أصبح ولدي مع الأسف معوَّقاً اليوم بسبب المرض».

«لقد عانت ابنتي اليوم من الحمى في ساعة مبكرة، حتى لقد اضطررنا إلى الذهاب إلى الطبيب».

وما من أحد يحمل هذا على محمل الجد تماماً. على أن الأطفال لا يكذبون كذباً مباشراً بل يخادعون قليلاً. أمّا الأمهات فيتظاهرن بأنهن لاحظن السبب الحقيقي ويكتبن ورقة الاعتذار - إنهنّ يمارسن الخداع قليلاً، لقد تسللت إلى حياة العائلة عقدة اسمها عقدة المعاذير المحبوبة كثيراً، والتي تُمارس ممارسة متقنة وبجد: «بالنظر إلى أمور عائلية ملحة، لا تستطيع ابنتي نيكول أن تأتي إلى المدرسة في الثالث والعشرين من هذا الشهر، لأنها...»

«ثمة أسباب صحية ترغم زوجي على البدء في إجازته منذ يوم الخميس، بحيث يضطر أليكس إلى أن تُفَوَّت عليه الدروس في يوم الجمعة».

ولو كان هناك يوم عطلة قانوني قبل عطلة نهاية الأسبوع لازداد عدد الاعتذارات الاضطرارية بسرعة، ويجري قبول هذا التفسير من قبل الوالدين والأولاد بتضامن صامت بينهما ويفضِّل القوم أن لا يتحدثوا عن ذلك أبداً، أو يسلكون سبيل الملف المبني على التضخيم والمبالغة، ايضاً، في إطار من الشرعية الكاملة «أجل، أنت تعرف، لابد لنا أن نمر في يوم الخميس قبل ذلك على أُومّا، التي ساءت حالها مؤخراً إلى حد بعيد من جرّاء...».

«والدي يحتاج ببساطة إلى أيامه الأربعة عشر، من الإجازة، والفندق لم يكن خالياً إلا منذ يوم الخميس...».

على أن أفضل المعاذير هي تلك التي يكون المرء قد آمن بها هو نفسه، تقريباً، والصغير هانز يتعلم، من خلال مثال الوالدين، كيف يدبر المرء لنفسه الفرص بالمعاذير، وهكذا يحافظ الصغير هانز بعد ذلك، بقلب طيب، على الصمام الصغير ولا يبلِّغ أحداً عن الآخرين أو يفشي أسرارهم - ويقرر أن يستخدم تكتيك الوالد والوالدة في المرة التالية أيضاً.

أجل، هنا نجد البوادر التي تفضي إلى طوفان متصاعد من المعاذير التي تصحبنا على مدى حياة بأسرها - وكذلك يصحبنا اليقين الذي يفيد أن هذا ليس بالأكاذيب، بل هو محض حماية للذات، لأن المرء لا يسره أن يسلم بعيب أو نقيصة. والآن يطبق الواحد منهم النمط ذاته، كما كان يفعل أيام الطفولة، هناك عَلِمَ ذلك الواحد منهم:

أن الناس قد أفسدوا شيئاً ما أو فعلوه بطريقة خاطئة.

وعَلِمَ الواحد منهم أن الكبار يعاقبون على هذا عندما يلاحظونه، وهو يريد أن يفلت من العقوبة، وهكذا نُسِبَ الكذب إلى الشيطان الذي يقال له: أيها الشيطان أخرج من هنا، أما الآباء والأمهات المتبصرون فقد أطلقوا على هذا اسم «الأكاذيب الفاحشة» أو «الخداع الدنيء»

أمّا نحن فنقول الآن: معاذير، ويقع المرء في الأَشْراكِ ذاتها، ومن المؤسف أنه لم يخطر ببالي شيء أفضل من» معاذير التأخر، أو شيء جديد، ومع ذلك فما دامت تستعمل من قبل الجميع، ويحملها الجميع على محمل الجد، أو حتى يصدقونها، فإن الناس يمرون بها على الأغلب مرور الكرام من دون أن يُكْثِروا القولَ فيها، بل إن من الممكن أن يستقيم أمرها، ولكن...

زميلة لي دأبت على المجيء متأخرة، ظهرت ذات يوم وهي منفعلة كل الانفعال: «إذاً فلتتصوري أنني أرى، عند انطلاقي بالسيارة على الدوام أضواءً لماعة ساطعة ويصدر الناس إليّ إشارات ببوق السيارة، ويعطونني إشارات، وأنا لا أفهم هذا أبداً، فكل شيء على ما يرام - ثم أهُمُّ بتعبئة الوقود، فيتراجع عامل المحطة مذعوراً وهل تعلمون ما الذي كان هناك؟ بطّة، بطة كبيرة حقيقية، كانت في المقدمة متشبثة بجهاز التبريد وقد نشرت جناحيها، وهي تنزف - أي أن المسألة رهيبة! ولم أكن لاحظت هذا على الإطلاق، ولكن الناس جميعاً كان يتولاّهم الفزع بالطبع، ومن أجل ذلك كانوا يصدرون إشارات إليّ.

ومن الممكن أن يصح هذا الكلام، أما نحن فقد ارتسمت على وجوهنا تقطيبات تعبر عن الكثير، ونظرنا إلى الساعة، وكان الأرجح أنه ليس بالذريعة غير أنه كان يبدو لنا في صورة الذريعة، بل كان يبدو فوق ذلك، ذريعة سيئة للغاية.

والذريعة تعني أن يتخلص المرء من مسألة، أو ذنب يَعْلَق به، أو سلوك خاطئ، وذلك في الحقيقة بطريقة لا يتعرض معها الطلاء اللماع الساطع لخدش ما أو تلوث. والذريعة تتضمن أيضاً الفن الرفيع، وأعني فن الصمت عن الرأي الخاص، وإخفاء الموقف الخاص، ولكن ذلك يحدث دائماً بطريقة لا يلاحظها العالم المحيط بها أو يقتصر على الاستثارة فحسب، وفي هذا المضمار توجد مواهب طبيعية، ويوجد تلاميذ مقلدون لها أو مقصرون يائسون. أما الشر الأخير فنريد أن نتداركه بهذا الكتاب.